الفصل الثالث

سليم وولده سليمان القانوني

كان السلطان سليم بن بايزيد ذا شخصيةٍ متميزةٍ.

لقد استعجل الملك، وثار على أبيه وأعلن الانفراد بالسلطنة، ولم يلبث أبوه أن تنازل له عن العرش بضغط من الإنكشارية.

وكافأ سليم الإنكشارية، فخلع عليهم الخلع، وبذل لهم الأموال، وعيّن ولده سليمان حاكماً لإسلامبول، ثم سافر ليحارب أخويه وأولادهما. فاقتفى سليم أثر أخيه أحمد إلى أنقرة، لكنه لاذ بالفرار، فأسرع إلى بورصة وقبض على بعض أولاد أخويه وأمر بقتلهم.

ثم طارد أخاه كركود إلى أن ظفر به وقتله، كما تمكن من هزيمة أخيه أحمد قرب مدينة يكي شهر وقتله سنة ١٥١٣م/ ٩١٩هـ..

وهكذا يعمل حب الدنيا وجاه السلطان، وعلى أي حال استقرت له الأمور إلا أنه نشط إلى محاربة الشاه إسماعيل الصفوي الذي استقر في تبريز بعد أن امتد ملكه من الخليج العربي إلى بحر الخزر ومن منابع الفرات إلى بلاد ما وراء النهر.

كان الشاه إسماعيل قد ظاهر أحمد على أخيه سليم، وآوى إليه الفارين من أولاد أخويه أحمد وكركود، وتحالف مع سلطان مصر قانصوه الغوري على دولة آل عثمان.

وليجد سليم ذريعة لنشوب الحرب مع الشاه الصفوي سارع بالقبض على رعاياه المقيمين بالولايات القريبة من أملاكه وقتلهم جميعاً.

ثم أعلن السلطان سليم الحرب على الدولة الصفوية، حيث كانت هذه الدولة تتخذ مذهب الشيعة مبدأ لها وعملت على محاربة أهل السنة واتفقت مع المستعمرين البرتغاليين للوقوف في وجه العثمانيين المسلمين، وخرج بجيوشه من أدرنة، وانتصر على قوات الشاه انتصاراً حاسماً في معركة جالديران دون سنة ١٥١٤م/ ٩٢٠هـ، وفتح تبريز واستولى على خزائن الشاه، وأرسلها إلى إسلامبول بصحبة أمهر الصناع والحرفيين التبريزيين، ثم خرج بجيشه يتعقب الشاه، لكنه اضطر إلى الخلود إلى الراحة بأماسيا لشدة البرد، إلى أن يستأنف السعي خلف الشاه في فصل الربيع.

ثم انطلق حين قدم الربيع ففتح قلعة كوماش سنة ١٥١٥م/ ٩٢١هـ، ثم عاد إلى إسلامبول بعد أن عهد إلى قواده بأن يتموا فتح الولايات الفارسية، ثم انطلق يستعد للإغارة على مصر؛ إذ حالف سلطانها قانصوه الغوري الشاه

إسماعيل على محاربة الدولة العثمانية، حاول الغوري مصالحة السلطان سليم بيد أن الأخير رفض ونشط بجيشه فاخترق بلاد الشام، والتقى جيش مصر قرب حلب في مرج دابق فانهزم جيش مصر وقتل السلطان الغوري في المعركة في رجب ٩٢٢هـ/ آب ١٥١٦م.

واحتل السلطان سليم مدن حمص وحماة ودمشق وفرض عليها الولاة من بني عثمان، وتسمى بلقب خادم الحرمين الشريفين لأول مرة في التاريخ.

ثم انبرى السلطان سليم للقاء جيش مصر بقيادة طومان باي، وهزم الجيش، لكن فرّ طومان باي، إلى أن وقع في قبضة سليم فقتله على باب زويلة سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م.

لم تكد الغلبة تكون لسليم حتى بارح القاهرة عائداً إلى إسلامبول عاصمة الدولة ومقر الخلافة العثمانية، ثم انصرف إلى أدرنة ليرتاح من عناء الحرب، وبعدها نشط إلى مهاجمة جزيرة رودس بحراً، وإلى تعقب الشاه إسماعيل، بيد أنه توفي في التاسع من شوال سنة ٩٢٦هـ الموافق للثاني والعشرين من أيلول سنة ١٥٢٠م، بعد أن ملك تسع سنين.

وعلى أثر وفاته ملك ولده سليمان مقاليد الأمور.

تبدأ سلسلة الأمجاد بتولي سليمان بن سليم السلطنة العثمانية؛ إذ لم يحدث في أي عهود الدولة العثمانية أن وصلت الدولة إلى تلك المرحلة التي أدركتها في زمانه.

لقد قابله جنود الإنكشارية بالتهليل والفرح، فوزّع عليهم العطايا والهدايا، ثم تفرغ لمحاربة مناوئي السلطنة وخصوصاً حاكم الشام جانبرد الغزالي الذي كان من أنصار قانصوه الغوري، وظفر به وقتله في صفر سنة ٩٢٧هـ/ كانون الثاني ١٥٢١م.

ثم نشط سليمان إلى قتال ملك المجر، فأرسل قائده أحمد باشا فاستولى على مدينة (شابتس) قرب بلغراد، ثم أقبل السلطان بجيشه وحاصر بلغراد واستولى عليها في رمضان ٩٢٧هـ/ آب ١٥٢١م، وحوّل أكبر كنائسها إلى مسجد وأقام فيه الصلاة.

ثم عقدت المحالفة بين العثمانيين والبنادقة، ثم انصرف السلطان للاستعداد لغزو رودس ليجعلها حلقة اتصال بين مصر وإسلامبول من جهة البحر.

انطلق الأسطول العثماني إلى الجزيرة محاصراً عن طريق البحر، بينما نصبت المدافع في البر أمام أسوار الجزيرة، وبدأ قصف الجزيرة من الناحيتين إلى أن طلب حاكمها مهلة لإخلائها من ساكنيها النصارى، ثم غادر الحاكم

الجزيرة قاصداً جزيرة مالطة، فاحتل العثمانيون الجزيرة سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م.

ثم عاد السلطان سليمان إلى القسطنطينية (إسلامبول) ليتفرغ للإصلاحات الداخلية.

بعد ثلاث سنوات سافر السلطان سليمان إلى بلاد المجر لفتحها، ونصب مدافعه أمام أسوارها، وأطلقها فقوّضت الأسوار، وقتل ملك المجر أثناء اقتحام القوات العثمانية لمدينة بودا عاصمة البلاد، ثم انصرف السلطان عائداً إلى أدرنة ثم إلى القسطنطينية في تشرين الثاني ١٥٢٦م، لكن ملك النمسا فرديناند طمع بالاستيلاء على بلاد المجر، فانقض بجيوشه على مدينة بودا واحتلها وقتل الحامية العثمانية بها.

حشد السلطان سليمان قواته، وكر عائداً إلى المدينة وضرب عليها الحصار، بيد أن فرديناند ملك النمسا ولّى هارباً إلى عاصمته، وعادت مدينة بودا إلى السيادة العثمانية.

نشط سليمان إلى حصار عاصمة النمسا وسلط مدافعه على أسوارها لكنه اضطر إلى العودة إلى عاصمة العثمانيين حين استعصت العاصمة النمساوية على الفتح.. وكان ذلك سنة ١٥٣٢م/ ٩٣٩هـ.

ولم يلبث ملك النمسا أن حالف الدولة العثمانية وعقدت معاهدة الصلح بين الطرفين في ذي القعدة ٩٣٩هـ/ حزيران ١٥٣٣م، ثم انطلقت قوات سليمان كالعاصفة سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م، واستولت على مدينة بغداد، ثم عادت إلى القسطنطينية وسط مظاهر التهليل والسرور بالنصر المبين والفتح العظيم.

ونسجل لهذا السلطان جهوده الجبارة في فتح البلاد والممالك الأوروبية لنشر الإسلام، ولابد أن ننوّه بجهود أحد قادته العظام، وهو خير الدين باشا الذي اشتهر بلقب بربروسا أو ذي اللحية الحمراء.

تذكر مصادر التاريخ التي تناولت سيرة خير الدين أن أصله يعود إلى إحدى جزر بحر إيجة، وكان هو وأخوه (عروج) يشتغلان بالقرصنة في بحر الروم، ثم منّ الله عليهما بالإسلام فنذرا حياتهما لإعلاء كلمة الله، ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي سلطان تونس، ثم أرسلا إلى السلطان سليم الأول العثماني هديةً هي بعض المراكب التي غنماها من أساطيل أوربا التجارية فسر سروراً بالغاً، وأرسل إليهما عشر سفن يستعينان بها على غزو مراكب أوربا، فقويت شوكة الأخوين، وسرعان ما استولى عروج الأخ الأكبر على مدينة الجزائر نفسها وهزم البحرية الإسبانية كما افتتح مدينة تلمسان، لكنه لقي مصرعه في إحدى المعارك، فتولى أخوه خير الدين القيادة من

بعده، وتغلب على الأسطول الإسباني وحافظ على استقلال تلمسان والجزائر، فأرسل إليه السلطان سليم بأمر سلطاني عيّنه فيه على إقليم الجزائر تحت لواء السلطنة العثمانية.

ولا مناص في أن جهوده في نجدة من بقي من المسلمين بعد سقوط غرناطة في أيدي الإسبان جديرة بالتقدير؛ إذ ساعد هؤلاء الفارين على الرجوع إلى بلاد المغرب والاستيطان بها فراراً من اضطهاد الإسبانيين لهم وإجبارهم على اعتناق النصرانية مكرهين.

ثم استدعاه السلطان سليمان أوائل سنة ١٥٣٣م/ ٩٤٠هـ، إلى إسلامبول للتنسيق معه على صد هجمات الأميرال الجنوي دوريا، وسرعان ما عكف على تجهيز المراكب اللازمة ليغزوا بها إقليم تونس.

وفي صيف ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م، خرج خير الدين غازياً من مضيق الدردنيل قاصداً جزيرة مالطة لإخفاء قصده الحقيقي إلى أن وصل إلى مدينة تونس أوائل ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م، متعللاً بأنه أتى ليخلّص أهل تونس من حاكمهم حسن الحفصي، ولم يلبث أن احتلها دون كبير عناء تحت راية الدولة العثمانية.

لكن شارلمان وفرسان القديس يوحنا سارعا باستعادة المدينة بعد رحيل خير الدين عنها، وأعادوا السلطان المخلوع إلى ملكه بعد أن ارتكبوا المحرمات وهدموا المساجد، وحرقوا مكتبة مدينة تونس النفيسة.

ثم عقد السلطان سليمان حلفاً مع شارلمان على أن تنصرف الدولة العثمانية إلى محاربة النمسا وأسبانيا وإيطاليا، ثم نشط السلطان سليمان إلى غزو البندقية، فأصدر مرسوماً بتعيين خير الدين باشا برتبة القبودان أو القائد العام للبحرية العثمانية، وجهزه بألف سفينة ليحاصر بها إحدى الجزر، لكن اضطر السلطان لرفع الحصار عنها، وانطلق خير الدين بالأسطول العثماني ليفتح بقية الجزر الرومية، فغزا جزيرة كريت واحتلها سنة ١٥٣٧م/ ٩٤٢هـ.

وبعد عام انطلق السلطان سليمان بقواته يصحبه خير الدين باشا للإغارة على إيطاليا، وانتهت الغزوة بتنازل البندقية عن نابولي للسلطنة العثمانية.

أغارت النمسا على المجر، فنشط السلطان سليمان لحربها، فأسرعت النمسا عائدة وتاركة المجر للقوات العثمانية، فدخلتها وصارت بلاد المجر ولاية عثمانية وتحولت أكبر كنائسها إلى مسجد.

وغزا خير الدين باشا مدينة نيس وفتحها عنوة في آب ١٥٤٣م، جمادى الأولى ٩٥٠هـ.

وانتهت المشاحنات بين العثمانيين والنمسا بتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين سنة ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م، تقضي باستمرار الهدنة مدة خمس سنوات.

ولم يلبث خير الدين أن صعدت روحه إلى بارئها سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م، ودفن على شاطئ مضيق البوسفور.

ثم انطلق السلطان سليمان إلى تجهيز الأسطول العثماني للغزو، وأرسله في معية عشرين ألف جندي ليفتح عدن ومسقط واليمن، وصار ذلك كله من الولايات العثمانية.

ثم تجددت الغارات العثمانية على ممالك شاه الفرس، واقتحمت القوات العثمانية مدينة تبريز واحتلتها سنة ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م. لكن النمسا نقضت الهدنة، فنشطت جيوش الدولة العثمانية إلى حرب النمسا، وهزمتها في عدة مواقع وفتحت مدينة تمسفار.

ثم عقد تحالف بين السلطان سليمان وملك فرنسا على أن تغزو الدولتان جزيرة كورسيكا الإيطالية، وسرعان ما افتتحتها الدولتان سنة ١٥٥٣م، لكن الخلاف وقع بين الدولتين فانسحب قائد البحرية العثمانية عائداً إلى الآستانة.

ولكن السلطان سليمان توفي سنة ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م، وذلك بعد أن أتم الصلح مع شاه فارس، واحتلال العثمانيين لمدينة سكدوار المجرية.

لقد اشتهر هذا السلطان العظيم بلقب القانوني لما وضعه من الأنظمة والإصلاحات الداخلية في فروع الحكومة؛ إذ جعل وظيفة المفتي أكبر وظيفة علمية، وقسّم جيش الإنكشارية العثماني إلى فرق ثلاث، وزاد عدد الجيش إلى ثلاث مئة ألف جندي.

obeikandl.com